لقد شاءت له إرادة الله أن يكون مزاجا طريفاً من هاتين القوتين المتنازعتين : قوة الخـــير وقوة الشر ، ولا تتحقق لذلك المخلوق إنسانيته إلا إذا كان قادراً بطبعه على أن يكون خيراً شريراً فى آن . فما الخير والشر إلا عاملان طبيعيان خلقا معه ، وسكنا فيه ، ودارجاه فى أطوار حياته ، فهما يتعاورانه لا ينفكان عنه ، وهما مصطلحان عليه ما عاش ! ...

تحدث إلينا نفر من مؤرخى الثورة الفرنسية ، فذكروا فيما ذكروا أن لفيفاً من أصفى النساء قلوبا ، وأودعهن طباعا ، وأكثرهن إشفاقا ، مالبثن بين عشية وضحاها أن انقلبن — فى أتون الثورة الدامية — نمرات ضارية ، يُزْعمن على الجماهير ، ويؤججن المعارك ، ويتقدمن صفوف الهجوم ، ويحملن المعاول والحراب ، فيجرين — بأيديهن الناعمة البضة — أنهار الدم المسفوك ! ...

لقد كمنت فيهن من قبل روح القساوة ، وانقمعت شهوة الفتك ، ولكنها بقيت فى قرارات النفوس تحت أثقال جسام ، فلما انزاحت الأثقال ، وأتيح لهذه النزعات أن تتنفس ، لم تملك إلا أن تخرج فى ضراوة وشموس ، لكى تصاول فى عتو وجبروت ! ...

وعكس هذه الظاهرة نلمسه فى فئة ممن تورطوا حيناً فى مزالق